الإســـراء

أمضى رسول الله ﷺ ليلةً في منزل أمّ هانىء، بعد أن فرغ من شؤون الناس، وصَلّى العشاء الآخرة، حتى إذا ما كاد النهارُ ينسلخُ من إهاب الليل، وتفتَّحت الأعْيُنُ على تباشير الصباح، أُهيب به أن يستيقظَ للصلاة فنهض، ودعا بالوضوء[1] فتوضأ، وحضرت الصلاةُ فصلّى، ثم دعا إليه أم هانىء ليحدّثها؛ إذ هو ﷺ قد شهدَ الليلةَ أمراً عظيماً، ورأى مشهداً عجيباً! وقد اختَصَّه الله بفضل، وآثره بشرف، ما يعلمُ أنه قد حَبَاهُ أحداً من قبله، أو يُتَاح لأحَدٍ من بعده، ولا مَعْدِل عن الإفضاء به والتحدّث عنه.

وجاءت إليه أمُّ هانىء ـ وهي بنتُ عمه أبي طالب، وَمِنْ شِيعَته وأنصاره، ومن مُؤَازريه وأعوانه ـ فقال لها: «**يا أمَّ هانىء، لقد صليَّت معكُم العشاء الآخرة، كما رأيتِ بهذا الوادي، ثمَّ جئتُ بيتَ المقدس فصلّيتُ فيه، ثم قد صليتُ صلاةَ الغداة مَعَكُم الآن كما تَرَيْنَ**».

وأعلنها أنه خارج الآنَ لِيَلْقَى قريشاً ويخبرهم بما رأى، ويقصّ عليهم ما شاهد، تحدُّثاً بالنعمة، وإعلاناً لقدرة الله.

كانت أم هانىء مؤمنةً قوية الإيمان، مسلمة آكد الإسلام، ولهذا لم يُخَامِرْها شكّ في صِدْقِ ما رأى، ولم يداخلها رَيْبٌ في صحةِ ما روى، ولكنها عرفت قريشاً: مكْرَهم وإيذاءَهُم، وشاهدت قومَها: كيدهم وتكذيبهم، فخافت على رسول الله ﷺ من الكَيد والتكْذِيب، وأشفقت عليه من الأذى والاستهزاء، فأخذت بطَرَف ردائه، وتعلّقتْ به منْ ثوبه، وقالت: إني أذكِّرك الله يا بْنَ عمي، أنْ تأتيَ قوماً يكَذِّبون رسالتَك، وينكُرونَ مقالتك، فأخاف أن يَسْطوا بك، وتمنَّت من رواء توسُّلها، وأمّلت من وراءِ تعلُّقها، أنْ يكتمَ حديثَه، وأن يحفظَ ما رأى بين طيَّاتِ صَدْرِه، حدَباً وعطفاً، وخوفاً وإشفاقاً.

---

(١) الوَضوء: بفتح الواو: الماء المعدّ للوضوء.

ولكنه ﷺ يحتملُ رسالةَ البشرية كُلّها: حاضرها ومستقبلها، فكيف السبيلُ به إلى الخوف؟ ويتنزَّلُ إليه أمْرٌ عظيم، فكيف يحوطُهُ بالكتمان؟ إنه لا يَخافُ الكَيْدُ والأذى، ولا يخشى الاستهزَاءَ والتكْذِيب، ولهذا جذب رِدَاءَه، وجمع عَزْمَه وخرج.

* * *

ذهب رسول الله ﷺ غير هَيَّاب يحدِّثُ قريشاً، ولكن أم هانىء تضاعَف هَمُّها، وزادَ وَجَلُها، فدعت إليها نَبْعَة ـ وكانت جاريتَها وموضعَ سِرِّها وثقتها ـ وقالت: انطلقي خَلْفَ رسول الله ﷺ، واسمعي ما يقول، وتعالي بعد ذلك حدِّثيني بما سيكون.

وذهبت نَبْعَة تَقَصُّ أثَرَ الرسول ﷺ، ثم عادت إلى سيدتها، وقالت: لقد أدركتُ رسول الله ﷺ في الحَطِيم، بين الكعبة والحَجَرِ الأسود، وما أنْ رآه أبو جهل حتى ابتدَره قائلاً ـ مستهزئاً كعادته، متعَنِّتاً كدَأبه: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، أُسْرِيَ بي الليلة**». قال: إلى أين؟ قال رسول الله ﷺ: «**إلى بيت المَقْدِس**». قال له: ثم أصبحتَ بين ظَهْرَانيْـنَا؟! قال رسول الله ﷺ: «**نعم**». فعاد أبو جهل وقال: أرأيتَ إنْ دعوتُ قومك أنْ تحدِّثهم بما حدَّثتني؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم**». وانطلق أبو جهل يَعْدُو كالثور، وينادي: يا معشر بني كعب بن لؤي!!

قالت أم هانيء: اجلسي يا نَبْعَة، ثم أتمِّي الحديث، فما أرَى إلا أنه سيطول، وجلست نَبْعَة، واستأنفت الحديث، وقالت: وما رَاعَنِي إلا القوم ينْثَالُون من كل ناحية، وينْسِلون[1] من كل حدب، يقدمُهم أبو جهل حتى أحاطوا برسول الله ﷺ من كل جانب، وطلب أبو جهل أنْ يُخْبِرَهُم الرسولُ بما رأى، وَحَسِبَ أنه سيغيِّر مِنْ قَالَتِه، أو يبدِّل من خَبَرِه، فقال رسول الله ﷺ: «**إني أُسْرِيَ بي إلى بيت المقدس، فنُشر لي رَهْط**[2] **من الأنبياء، منهم إبراهيم وموسى وعيسى، وَصَلَّيْتُ بهم وكلمتُهم**».

قال أبو جهل ـ مُمْعِناً في هزئه وَمَكْرِه ـ: إن كنتَ قد رأيتهم فَصِفْهم، قال رسول الله ﷺ: «**أمَّا عيسى فقوق الرَّبْعة ودونَ الطويل، تعلوه حُمْرة كأنما يتحادَرُ عن لحيته**

(١) نسل الماشي: أسرع.
(٢) الرهط: الجماعة ما دون العشرة.

الْجُمَان[١]. وأما موسى فضَخْم آدم[٢] طويل كأنه من رجال شَنُوءة، وأما إبراهيم فإنه والله لم أرَ رجلاً أشبه بصاحبكم، ولا صاحبكم أشْبَه به منه».

ثم عادُوا فطلبوا منه آيةً تدلُّ على صِدْق ذلك، فقال: **«آيةُ ذلك أني مررت بِعِيْرِ بني فلان بوَادِي كذا وكذا، فأنفَرَهُم حِسَّ الدَّابة، فَنَدَّ[٣] لهم بَعير، فدللتُهم عليه وأنا مُوَجَّهٌ إلى الشام، ثم أقبلتُ حتى كنتُ بضَجْنَان[٤] مررت بعيرِ بني فلان، فوجدتُ القومَ نِيَاماً، ولهم إناءٌ فيه ماء، وقد غَطُّوا عليه بشيء، فكشفتُ غطاءه وشربْتُ ما فيه، ثم غَطَّيته كما كان، وآيةُ ذلك أنَّ عِيرهم تصوب الآنَ من ثَنِيَّة التنعيم البَيْضَاء[٥]، يقدمها جَمَلٌ أوْرق، عليه غِرَارَتان: إحداهما سوداء، والأخرى بَرْقَاء»[٦].**

وابتَدَرُوا إلى الثنيَّة، فوجدوا العِير كما ذكر الرسولُ ﷺ، يقدمها جَمَلٌ أوْرق كما أخبر. قالت أمّ هانىء: هِيه يَا نَبْعَة، وماذا كانَ منْ أمْرِ القوْم بَعد هذهِ الآيات البينات؟ قالت: لقد رأيتُهم لَوَّوْا رُؤوسهم، وغَمَزُوا بعيونهم، ثم صاحوا منكرين بملء حَنَاجرهم.

وقد اجتراً المُطْعم بن عَدِيّ، فقال: كان **أمرك قبلَ اليوم** أمراً يسيراً، فإذا بكَ اليوم تُعْجب وَتُغْرِب! نحن نضربُ أكبادَ الإبلِ إلى بَيْتِ **المقدس**، نصعد شهراً، ونَنْحَدِرُ شهراً، وأنتَ تزعمُ أنكَ أتيتَه في ليلةٍ واحدة؟! واللات والعُزَّى لا أُصَدِّقُكَ، ولقد أشهد أنكَ كاذب.

وما وصلت نَبْعَة في الحديث إلى هذا المقدار، حتى علَتْ وَجْه أمّ هانىء سحابةٌ من الهمّ، وتحيرت في عينيها دمعةٌ من الإشفاق.

ولكن نَبْعة استأنفَت حديثها وقالت: أما أبو بكر فإنه نطق من فَوْرِه، وقال لرسول الله ﷺ: أشهد أنكَ صَادق. فقال له المُطْعم بن عديّ: أتصدِّق أنه ذهب إلى بيت المقدس، وعاد قبل أن يُصْبِح؟! قال أبو بكر: نعم، إني لأصَدِّقه فيما هو أبْعَدُ من ذلك،

---

(١) الجُمان: حب يصاغ من الفضة على شكل لؤلؤ، أو هو اللؤلؤ.
(٢) أدِمَ: اشتدت سمرته، فهو آدم.
(٣) نَدَّ البعير: نفر وشرد.
(٤) ضجنان: جبل بناحية تهامة. وقيل: هو جبيل على بريد من مكة.
(٥) التنبة البيضاء: عقبة قرب مكة، أسفل مكة من قبل ذي طوى.
(٦) بَرِقَ الشيء: اجتمع فيه لونان من سواد وبياض، فهي برقاء.

أنا أُصَدِّقه في خَبَرِ السماء في غدُوِّه ورَوَاحه، أفأكذبه في إكرام الله له بأنْ ينقله مسيرةَ شهر؟

وتَبِع المسلمون أبا بكر، ولكن واأسفاه! لقد ارتدَّ نَفَرٌ قليل منهم، لم تَتَّسِعْ عقولهُم لأنْ تدرِكَ قدرةَ الله، ولم تستَرْوِحْ قلوبُهم لما اختصَّ به رسولُ الله ﷺ.

قالت أم هانىء: لا بأس على دِين رسول الله من هؤلاء النَّفَر الذين ارتدُّوا، فلعلَّ من الخير أنْ يبتعدوا عن صُفُوف المسلمين، ويمَّحُوا من صحيفة المسلمين؛ إذ لا خَيْرَ للمسلمين في ضعيف متردّد، ولا نفعَ لهم في مُذَبْذَب مضطرِب.